"الأسلوب هو الإنسان" يقول "جورج لويس لوكليرك دي بوفون" (1707-1788)

غسان مراد

أحاول في مقدمة كل عدد أن أجد مفهومًا يشكل رابطًا بين المواضيع المدرجة. وما لفت نظري في هذا العدد كانت مفردة الأسلوب. ويرتبط هذا البحث عن علاقة بين المواضيع كونه يتعلق بنمط النشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الصادرة عن مركز الأبحاث والدراسات في الكلية؛ فهي مجلة غير مخصصة لمحور معين ولمجال محدد، بل يطرح كل عدد مواضيع تتعلق بمجالات تخصصيه عديدة، في العلوم الإنسانية والحقوق والإعلام والتربية.

والسؤال الذي يطرح هنا هو عن ماهية الرابط الفعليّ لكل هذه الأبحاث والدراسات... ولم أجد إلا الوصل والفصل في الكتابة العلمية. الوصل يكون في الغاية من الكتابة بحدّ ذاتها والفصل يكون في المجالات التي تعالجها المجلة كمجلة دراسات جامعية في الآداب والعلوم الإنسانية...

ويبقى الرابط الأساسيّ الذي يجمع بين الفصل والوصل هو مفهوم الأسلوب: أي إنّه لكل مجال من المجالات أسلوبه الخاص به. والأسلوب في الكتابة هو مجال من مجالات طرح وجهة نظر للتعريف بأمر معين بصورة متناسقة علمية تهدف في النهاية إلى الأخذ بالفكرة؛ أي إنّ الغاية الأساسية هي الإقناع بتبنّي الفكرة المطروحة.

"الأسلوب هو الإنسان" يقول جورج لويس لوكليرك دي بوفون (Georges-Louis Leclerc de Buffon)، فالكاتب الجيد ليس من يحوك الكلمات بشكل جيد وينظِّمها وينظُمُها، بل من يجيد سبك الأفكار وربطها لتتماسك في ما بينها. والسؤال: هل ينطبق الأسلوب على الأدب فقط (الأسلوبية الأدبية) أم أنه ينطبق على العلوم كلّها؟

في ما يخص الأدب والفنون بشكل عام، من الممكن القول إنّ الأسلوب يتعلّق بنمطٍ فكريّ يتّبعه الكاتب عند ممارسة الكتابة وفي كيفية استخدام اللغة ومفرداتها وهيكلتها. أما في ما يتعلق بالعلوم الإنسانية بشكل عام، فعلى الأسلوب أن يكون مرتبطاً أكثر بكيفية نقل الرسالة بشكل لا لبس فيها، ومن هنا أتت العبرة من رسالة "بوفون"؛ فالرسالة المرسلة يجب أن تكون واضحة وضوح المعرفة التي يتمتّع بها الكاتب. والأسلوب هو الإنسان؛ أي إنّ ما ينتجه الكاتب يحدّد هُويته ومدى معرفته بموضوع معيّن!

فعندما يستخدم عالم كتاباته لصالح العلم، يوظّف بذلك معرفته في شكل "مادة" مشتركة بين جميع زملائه. والأمر متروك له لإنشاء "شكل" خاص به (نصوص، صور، جداول، إلخ). ومن هنا يفترض بوفون أنّ الأسلوب مرتبط بالمعرفة الراسخة التي تؤدّي إلى خلق قيمة فعلية لما يكتب، لذلك من المفترض بالكاتب أن يتفوّق على ذاته ويهيمن على موضوعه، فالأسلوب العلمي هو الطريقة التي تجري بها مقاربة العلوم.

وبالاستناد إلى ما سبق تُطرح التساؤلات التالية: هل لكل علم أسلوب كتابيّ خاص به يُضاف إلى أسلوب الكاتب في تدوين أفكاره؟ وهل طرق المعالجة متشابهة أم أن طرق الكتابة متنوعة بحيث إن النتيجة التي تصل إلى القارئ تكون مختلفة بين معالج لموضوع وآخر؟ وهل الأسلوب يؤدي إلى السلب (سلب فلان فكر فلان، أي أثر عليه في كلامه ليتبنى رأيه وفكرته)؟

استطراداً، وبما أنّ كل كتابة هي نوع من أنواع العلاج، يعتبر "لاكان" (Lacan) أن الأسلوب في علم النفس هو الطريقة التي ندخل فيها إلى مكنونات الفرد، بالنسبة إليه، "الأسلوب هو الإنسان ... الذي نتوجه إليه".

ويندرج مستوى الأسلوب على كل مكونات النص، بدءًا بالصورة الذهنية للفكرة عند الكاتب والطريقة والأدوات التي يستخدمها ليعبر عن أفكاره وصولاً إلى الصورة الذهنية التي تتكون عند المتلقي. ولكي يكون الأسلوب متكاملاً عليه أن يراعي مكونات النص كلّها: المرسل والرسالة والقنوات والمتلقي، فهذه الشروط مجتمعة تؤدي إلى نتيجة وإلا يصبح الكلام من دون هدف.

وإذا اعتمدنا طريقة محدّدة في العرض، فيجب التنبه أولًا إلى أن كل مجال من المجالات له أسلوب معين في معالجة الأمور، ثم من الناحية المصطلحية لن يكون معنى مصطلح الأسلوب هو ذاته في الاختصاصات كلّها. وهذا أمر لا جدال فيه!

ولكل علم من العلوم الإنسانية أسلوبه الخاص، فأسلوب كتابة التاريخ يختلف عن أسلوب كتابة الأدب الذي بدوره يختلف عن أسلوب كتابة التقنيات، والجغرافيا والفلسفة وغيرها من العلوم...

كما نجد أن الأسلوب كعلم في الفن لا لبس فيه، فهو مصطلح يتعلّق بمدرسة فنية تتّخذ من الأسلوب نمطًا فنيًّا لها. كما يوجد في الفن ما يمكن أن نسميه التأنق، أي فن الطريقة الجميلة، ونقول: "يتفنن على طريقة فلان"، وهذا ليس تقليدًا بقدر ما هو تناص بين الفنون من ناحية واقتباس من ناحية أخرى. كما يوجد أسلوب متعلّق في فهم تبعية الأفراد المرضية حتى وصولها إلى درجة الفوبيا وهي تندرج تحت أسلوب المعالجة النفسية، وهي تعبيد الطريق التي سنصل منها إلى فهم شخصية معينة مثلاً، ودفع الفرد إلى التعبير عمّا هو مضمر في دماغه الباطني. أما الأسلوب في الكتابة الإعلامية–الدعائية وطرق طرح الإعلانات فهو الطريق التي نحاول أن نتلاعب فيها بسلوكية الأفراد لإقناعهم بشراء منتج معين. والأسلوب في دراسة عملية التكيّف هو الطريق التي تؤدي إلى نتائج واحصاءات ثابتة وتجارب علمية تساعد في فهم مجالات الحياة والمساعدة في حلّ مشاكلها. ونذكر الأسلوب في تنظيم التعليم وطرائقه لفهم آلية التكيّف الذاتي والمهني المدرسي أو لناحية فهم الاستراتجيات المعتمدة في التدريس الجامعي في كلية الآداب ويشمل الأسلوب في ملاحظة عملية التدريس الجامعي وهي الطرق التي تؤدي إلى التعرف إلى جودة العملية التعلمية ومصاعبها. والأسلوب في طرح مجالات الحوكمة هو مجموع الطرق التي ترتكز على تحديد أسس الإدارة.

وإذا كنا نعدّ أنه يوجد أسلوبان في البحث العلمي، الأدبي والعلمي، فمن المفترض القول إنّ أنواع الأساليب تتعدى هذا العدد بكثير... لدرجة من الصعب تحديدها بالكامل، لأن الدراسات الأدبية في العلوم الإنسانية والاجتماعية والحقوق والإعلام تتبع أساليب مختلفة ومتداخلة أحياناً. أخيراً يجب التأكيد بأن الفرق كبير بين أسلوب اللغة ولغة الأسلوب، وبين الأسلوب والأسلوبية كمنهج من منهجيات الدراسات الأدبية التحليلية.

ففي هذا العدد أتت الدراسات والأبحاث متنوعة وبأساليب مختلفة، الأولى عن دور الاقتصاد المعرفيّ في تطوير استراتيجيّات التدريس المتّبعة في العمليّة التعليميّة التعلميّة، في كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانيّة، ودرجة توظيف الأستاذ تلك الاستراتيجيّات، كونها تسهم في تحسين مخرجات التعليم الجامعيّ الذي يعدّ بدوره أحد أهمّ مرتكزات التنمية البشريّة، وذلك من خلال دراسة ميدانيّة تتمحور حول درجة استخدام الأستاذ الجامعيّ لاستراتيجيّات التدريس المبنيّة على الاقتصاد المعرفيّ وعلاقتها ببعض المتغيّرات، بالإضافة إلى بعض المقترحات التي تُعنى بتطوير تلك الاستراتيجيّات، لا سيّما في ما يتعلّق بالبحث العلمي. أمّا الدراسة الثانية فهي تتعلّق بطرح واقع التكيّف الذاتي والمهني والإبداعي وأهميّته في إثراء فكر المعلم وفي مساعدته لأن يكون مبدعاً، من خلال تناولها متغيرات إيجابية تنتمي لعلم النفس الإيجابي. ويكمن إطارها لدى معلمي ومعلمات المرحلة الأساسية من وجهة نظر المدراء في المدارس الرسمية في لبنان باعتمادها المنهج الوصفي الارتباطي المقارن. وتتمثل الدراسة الثالثة في دراسة حالة فعلية من خلال ملاحظة شخصية تابعة تعاني من قلق الانفصال ورهاب فقدان الهاتف المحمول المشخّص والمعروف منذ العام 2007 بـ"النوموفوبيا".

وتبحث الدراسة الثالثة في العلاقة بين قوة الدولة أو ضعفها وقدرتها على منع التطرف العنيف. وتسلط الضوء على الإجراءات التي تحفّز النهج التشاركي والتعاوني الذي يشمل إشراك السلطات المحلية والمجتمع المدني في الجهود المبذولة لمكافحة التطرف العنيف، من خلال دراسة تجارب وبرامج لعدد من البلدان كألمانيا وبولندا والسويد والدنمارك.

ويشير البحث الرابعة إلى أنّ موضوع تصوير الهوية الوطنية الفلسطينية في الرّسم؛ بهدف معرفة سيكولوجيا مفهوم الوطن، والهوية الوطنّية ورموزِها، وتمثلاتهما في الفن التّشكيليّ الفلسطينيّ المعاصرِ. وقد جرى التحليل على أربعٍ وعشرين لوحةً من أعمال الفنانَينِ(كامل المغني، ويوسف كتلو) لتحقيق هدف البحث، باستخدام المنهج الوصفي، وأسلوب تحليل المحتوى (Content Analysis).

اخيراً، الدراسة الخامسة في هذا العدد هي دراسة أسلوبية للكتابات الموجودة على المفارش الورقية التي يضعها أصحاب المطاعم على الطاولات امام الزبائن، وتحاول الدراسة الإجابة عن عدة تساؤلات حول اللغة والأهداف من هذه الكتابات وذلك لمجموعة من المطاعم اللبنانية من خلال دراسة أسلوبية للخط البياني النحوي والمعجمي والدلالي.

في النهاية من الممكن القول إنّ الاسلوب واحد ومتعدد في آن، هذه هي علاقة الفصل والوصل في البحث العلمي في العلوم الإنسانية وفي ما يُطرح في هذا العدد.